

الفصل الأول

معابر الحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا

١ - الأندلس

٢ - صقلية وجنوب إيطاليا

٣ - بلاد الشام والحروب الصليبية

٤ - حركة الترجمة

معابر الحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا

انحصر العالم فى العصور القديمة، والوسطى فى قارات ثلاث هى أوروبا وآسيا وأفريقيا، وكانت بلاد العرب ملتقى هذه القارات الثلاث خاصة بعد أن ظهر الإسلام، وقامت على أكتاف العرب دولة إسلامية كبرى امتدت من المحيط أو كما يسمى بحر الظلمات غربا إلى حدود الصين والهند وإقليم الخليج شرقا، وبعبارة أخرى فإن الدولة العربية الإسلامية استوعبت فى منطقة الشرق الأدنى أجزاء واسعة من شمال أفريقيا وجنوب أوروبا، كما امتدت شرقا لتضم أجزاء واسعة فى جنوب آسيا وغربها ووسطها، هذا فضلا عن بلاد وأقاليم امتد إليها نفوذ العرب تحت مظلة الإسلام فى غرب أفريقيا وشرقها ووسطها، وهذه المناطق تشمل موقعا جغرافيا فريدا فى ذلك الجزء المتوسط من العالم القديم حيث تتلاقى طرق المواصلات العالمية بين الشرق والغرب حاملة ثمرات الجهد الإنسانى فى الإنتاج الفكرى والأدبى والثقافى والتجارى وغيره.

وقد تلقت أوروبا آثار الثقافة العربية الإسلامية فى العصور الوسطى فى بداية الأمر عن طريق التجارة حيث كانت تنقل البضائع من آسيا إلى أوروبا الشرقية والشمالية. ثم شقت الحضارة الإسلامية طريقها إلى غرب أوروبا بعد ذلك عن طريق عدة معابر أبرزها ثلاثة هى:

الاندلس، وصقلية وجنوب إيطاليا، وبلاد الشام والحروب الصليبية.

وعن طريق هذه المعابر تمكنت أوروبا من إحياء ثقافتها مرة ثانية، وازدهرت فيها العلوم والآداب والفنون، وقد أكد ذلك «الكسندر كوريه» Alexandre Koyre أحد أعمدة علماء الغرب المشهورين بقوله «إن العرب كانوا أساتذة الغرب اللاتينى ومثقفيه، وأنهم لم يكونوا مجرد واسطة بينه وبين الشرق اليونانى كما شاع القول. فلولا «ابن سينا» ولولا «ابن رشد» لكان ظهور «القديس توما» أمرا مستحيلا، وأى مصير كان

ينتظر المخطوطة الوحيدة من كتاب «إقليدس» لولا وجود العرب الذين ظلوا حتى القرن السادس عشر مرجعا في قرطبة يرحل إليه الأوربيون ؟ ولم يكن هناك من علم إلا العلم الذى فى الكتب العربية، كما أكد ذلك «روجر بيكون» Bacon Roger بقوله إن كل الثقافات الأدبية والعلمية فى القرون الوسطى المسيحية كانت موسومة بخاتم الإسلام وعلامته.

ولكى تتضح هذه الصورة سنتعرض للمعابر التى وصلت منها الحضارة العربية إلى أوروبا.

أولاً : الأندلس :

فتح العرب الأندلس فى عام ٧١١م فكانت بذلك أول بلد يقتطعه العرب من أوروبا المسيحية ويضمونه إلى دولة الإسلام، ومنذ ذلك التاريخ حتى عام ١٤٩٢م حكم العرب هذه المنطقة وتركوا بصمات حضارتهم عليها خاصة وأن العرب اختلطوا بأهل شبه جزيرة أيبيريا وتعايشوا معهم واختلطت دماء المسلمين بدماء المسيحيين هناك عن طريق المصاهرة والزواج، ونشروا دينهم ولغتهم وحضارتهم .

ونتيجة لذلك بدأت فى الأندلس عملية امتزاج اجتماعى واسع النطاق بين مختلف العناصر، ونتج عن امتزاج العرب بأهل البلاد الأصليين أن ظهر جيل جديد يعرف باسم «المولدين»، كما اعتنق عدد من الإسبان الدين الإسلامى فعرفوا «بالمسالمة»، هذا إلى جانب الطائفة التى احتفظت بديانتها المسيحية وعرفت باسم «المستعربين» لأنهم اختلطوا بالعرب وتأثروا بهم فى لغتهم وسلوكهم وعاداتهم وملابسهم ونواحى حياتهم المختلفة، ثم الأقلية اليهودية التى كانت تعيش فى إسبانيا قبل الفتح العربى والتى كان لها إسهام كبير فى نقل العديد من عناصر الثقافة العربية إلى هذه البلاد.

وقد عاشت هذه العناصر والأجناس المختلفة من عرب ومسالمة ومولدين ومستعربين ويهود جنبا إلى جنب يأخذ كل فريق عن الآخر، وتؤثر كل جماعة فى الجماعة الأخرى وتتأثر بها.

يضاف إلى ذلك أن المستعربين الذى كان تأثرهم باللغة العربية واضحا لم يقتصر دورهم على ترجمة الكتب الدينية بل كانوا وسيلة لنشر الثقافة العربية الإسلامية فى

شمال إسبانيا المسيحي فقد كانوا من راغبي الهجرة إلى المناطق المسيحية خاصة مملكتي قشتالة وأراجوان.

ونتيجة لذلك كانت إسبانيا نقطة التقاء هامة بين الحضارة الإسلامية الوافدة والحضارة اليونانية، كما كانت مركزاً لدائرة تشع على أوروبا علوم وأداب وفلسفات وفنون العرب الأصلية المبتكرة منها، والممتزجة في بعض مكوناتها بحضارات إنسانية سابقة عليها، فأشرقت شمسها بطريقة مباشرة وغير مباشرة على غرب أوروبا، ونقلت إليه جزءاً من التراث الذي ورثته عن العرب، واحتفظت به بشغف في أرضها سواء أكانت قد طبعته بطابعها الخاص أو لم تطبعه .

وقد بلغت الحضارة الإسلامية ذروتها بالأندلس في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي عندما أصبحت "قرطبة" عاصمة الخلفاء الأمويين من أعظم المدن الثقافية في كل أوروبا، فكانت خزانة قصر الخليفة بها ما يزيد عن الأربعمئة ألف كتاب، وكان كبار رجالات أوروبا يقدون إليها للتزود من علومها . واستمر نور المدنية الإسلامية ساطعاً في الأندلس وبخاصة في الجوانب الثقافية والاقتصادية والفنية حتى امتد ليضئ غرب أوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، فأقبل الإسبان على استخدام اللغة العربية بل فضلوها على اللاتينية وأصبحت الأندلس المركز الرئيسي لحركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية، فاتجه كثير من أعلام النهضة الأوروبية في القرن الثاني عشر إلى الأندلس للاستزادة من المعارف والعلوم العربية، وإلى جانب ازدهار الثقافة والعلم في الأندلس فقد اقترن حكم الأمويين هناك والذي زاد عن مائتي وثمانين سنة بأنه أزهى عصور الحضارة العربية في إسبانيا، فتقدمت الصناعة تقدماً باهراً، وظهر نظام ممتاز للرعى والمنشآت المائية، ودخلت منتجات زراعية من الشرق مثل الأرز وقصب السكر، والنخيل والمشمش والرمان، كما اشتهرت الأندلس بزراعة أنواع مختلفة من الخضروات والفواكه لدرجة أن كثيراً من أسمائها دخلت في الإسبانية مثل الباذنجان Berenyenas والخرشوف Alcarchofa والزعفران Azafran الخ. وقامت تجارة رائجة بين قرطبة والعديد من بلدان المسلمين، ونشطت صناعة الحرب ذلك كله إلى جانب ازدهار العلم والفن، فعذوبة الأشعار التي اشتهر بها العرب انتقلت إلى الأندلس وغدا الشعر هناك معروفاً بعباراته الجذلة، كما ارتبط به الموسيقى والغناء. هذا

بالإضافة إلى علم الفلك والتاريخ قد نظم شعرا، ولقد أنجبت الأندلس عدداً كبيراً من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والمؤرخين والأطباء وغيرهم، ممن أثروا الحركة الفكرية بمؤلفاتهم، ووصلوا إلى العقل الأوروبي وأثروا فيه . ومن هؤلاء نذكر الفقيه «أبو محمد علي بن حزم القرطبي» (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٣م) الذي تظهر أصالته واعتزازه بنفسه ووطنه في كتاباته التي سبقت عصره . نذكر منها كتاب «طوق الحمامة في الألفة والألاف» الذي يتناول فيه صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه. فنجدته يعرض عن ذكر ما كتبه الأقدمون من أشعار الغزل وبكاء الأطلال ويسلك طريقاً مستقلاً يبين نضجه وأصالته، وقد اهتم الأوروبيون بهذا الكتاب واعتبروه أول دراسة نفسية تحليلية لعاطفة الحب والمحبين، وترجموه إلى لغات عديدة. أما كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» فهو عبارة عن دراسة نقدية للاديان والمذاهب والفرق الدينية المختلفة، ومقارنة بعضها ببعض الآخر، ويلاحظ أن هذا النوع من الدراسة، وهو التاريخ المقارن للاديان لم يوجد في أوروبا إلا في القرن الماضي، وهذا يرينا أصالة هذا الكتاب وإسهامه في الحضارة الإنسانية.

وما يقال عن «ابن حزم» يقال أيضاً عن معاصره وصديقه «أبي مروان ابن حيان القرطبي» (ت ٤٦٩هـ/١٠٧٦م) الذي يعتبر أعظم مؤرخ أنجبته إسبانيا الإسلامية والمسيحية في العصر الوسيط. فلقد ثبت من الأخبار التي أوردها في كتابيه «المقتبس» و«المتين» أنه على دراية واسعة ومعرفة دقيقة بكل ما يتعلق بتاريخ الأندلس وتاريخ الممالك الإسبانية المسيحية، بل وأيضاً بعض جوانب من التاريخ الفرنسي.

والواقع أن كتابات «ابن حيان» بالنسبة للباحثين الحديثين هي بمثابة خزانة علمية لهذا التراث الإسباني العربي بمختلف صوره وأشكاله، ولا يمكن لأي باحث أن يستغنى عن قراءتها والرجوع إليها.

ومن أبناء «قرطبة» أيضاً الجراح الشهير «أبو القاسم خلف الزهراوى». (ت ٤٠٣هـ/١٠١٣م) الذي ينسب إلى منية الزهراء في ضواحي غرب «قرطبة» وقد اشتهر في أوروبا باسم Abulcasis ويعتبر كتابه «التصريف لمن عجز عن التأليف»، موسوعة طبية مزودة برسوم الآلات الجراحية. ويعتبر «الزهراوى» بهذا العمل أول من جعل الجراحة علماً مستقلاً بذاته، وقائماً على أساس من العلم بالتشريح. وقد ترجم

هذا الكتاب من قديم إلى اللاتينية والعبرية. كما نشر في «حيدر أباد» بالهند كذلك أنجبت «إشبيلية» أسرة «بنى زهر» التي كانت لها شهرة وزعامة ومؤلفات في عالم الطب على عهد المرابطين والموحدين، حتى صار اسم «ابن زهر» علماً معروفاً في الأوساط العلمية الأوروبية باسم Avenzoar .

أما في ميدان الفلسفة فحسبنا أن نذكر «أبا الوليد محمد بن رشد القرطبي» (ت ٥٩٥هـ/١١٩٨م) الذي اشتهر بشروحه لكتب أرسطو وصارت فلسفته تدرس في جامعات أوروبا مثل جامعة «باريس» وجامعة «بادوا» Padova في إيطاليا. وقد بلغ من حب الأوروبيين لشروحه أن تخيلوا أرسطو بعمامة كما يقولون، وذلك لأن كتاباته امتازت بالعمق في التحليل والقوة في الشرح والأمانة في الترجمة. وقد أطلقوا عليه اسم المعلم الأكبر ويسمونه Averroes وقد وضعه الشاعر الإيطالي دانتي في ملحمة الشعرية «الكوميديا الإلهية» في منطقة اللمبو Limbo بين الفردوس والجحيم أي ما يقابل الأعراف في الإسلام، ووضع معه «ابن سينا» و«صلاح الدين» من المشرق، لأنهم من فضلاء الناس وتقديرهم لأعمالهم. ولقد ترجم «ميخائيل سكوت» أعمال «ابن رشد» إلى اللاتينية في مدرسة «طليطلة سنة ١٢٣٠م» فكان أول من أدخل فلسفة «ابن رشد» إلى أوروبا^(١).

لقد كانت بيئة الأندلس ملائمة لتلقى فنون المعرفة إذ اشتهر الأندلسيون بحب اقتناء الكتب وإنشاء المكتبات، وأخذت مصانع الورق في طليطلة تزود الأندلس بالأدوات الكتابية، واستدعى النساخ من جميع أنحاء العالم، وأصبح تجليد الكتب صناعة زاهرة، وفي قرطبة وعلى ضفاف الوادي الكبير كان الأوروبيون يقدون إليها لمشاهدة القصور الملكية ذات الحدائق والرياح والتي أطلق عليها المنيات والتي كانت أشهرها منية الرصافة التي بناها «عبد الرحمن الداخل».

وفي إشبيلية بلد الجمال والحدائق الرائعة الغناء التي كانت تربطها شبكة من القنوات المائية التي ما زالت محتفظة بأسمائها العربية في اللغة الإسبانية مثل الساقية Acequia بمعنى الجدول الصغير والناعورة Noria والبقاع Vega كانت وفود

(١) موسوعة العالم الإسلامي ص ٦٢ .

الأوربيين تتجه إليها لطلب أدوات الترف والزينة وفرق الموسيقى والغناء.

أما فى طليطلة فكانت الطريق الذى انتقل عنه كنوز المعرفة التى وصلت إلى أوروبا من الشرق، فكما عرف العرب من اليونان بعض علوم الغرب القديمة، عرف الغرب علوم الشرق عن طريق العرب فى العصور الوسطى، هذه كانت حالة الحضارة العربية الإسلامية فى الأندلس حتى القرن الحادى عشر الميلادى.

والجدير بالذكر أن التبادل الحضارى والثقافى بين الحضارتين، الغربية والشرقية فى الأندلس لم يخضع للجانب السياسى أو العسكرى فلم تتوقف الصلات بينهما رغم النزاع الذى نشب بين الإسبان والمسلمين وانقلاب موازين القوى هناك، فقد كان للأندلس الإسلامية حتى فى عصور ضعفها واضمحلالها نفوذ كبير على إسبانيا المسيحية، ولم يمنع تغيير موازين القوى لصالح الممالك النصرانية فى إسبانيا والبرتغال من الاستفادة من ثقافة المسلمين والأندلسيين والاضطلاع بدور حمل عناصرها ونقلها إلى مختلف بلدان أوروبا. فبعد سقوط طليطلة فى عام ١٠٨٥ على يد الفونسو السادس ملك قشتالة ظلت هذه المدينة محتفظة بصبغتها العربية، فازداد تدفق طلاب العلم من مختلف بلدان غرب أوروبا إلى إسبانيا للاستزادة من الدراسات الإسلامية وبلغت حركة التبادل العلمية أوج ازدهارها، فنشطت حركة الترجمة عن العربية نشاطاً كبيراً فتم ترجمة الكثير من مؤلفات العرب فى مختلف الفنون إلى اللاتينية، كما ترجم عن العربية العديد من مؤلفات اليونانيين مثل كتب «جالينوس» و«أبقراط» و«أفلاطون» و«أرسطو» و«أقليدس» وغيرهم^(١).

وظلت طليطلة مركزاً ثقافياً يجتمع فى جنباته علماء المسلمين والمسيحيين واليهود، وفى بلاط ملوكها المسيحيين بدأت حركة إحياء علمية، فبدأت هذه النهضة فى عهد «الفونسو السادس» واستمرت فى عهد «الفونسو السابع» الذى قام بحماية هؤلاء العلماء ورعايتهم وتشجيعهم على الاستمرار فى جهودهم العلمية القائمة وتقذاك على الترجمة عن العربية فترجموا الكثير من الكتب العربية إلى اللغة القشتالية أولاً ثم إلى اللغة اللاتينية بعد ذلك.

(١) سعيد عاشور : المدينة الإسلامية وأثرها فى الحضارة الأوربية ص ٥٢ .

ولما تولى «ألفونسو العاشر» الملقب بالعالم العرش الإسباني دفع هذه الحركة العلمية دفعة قوية إلى الأمام وفي عهده استخدمت اللغة القشتالية (الإسبانية) بدلا من اللاتينية وتم الاستعانة في ذلك بعدد كبير من العلماء من مسلمين ومستعربين ويهود، وأشرف «ألفونسو العاشر» على كل هؤلاء بنفسه ووضع لهم الخطط التي يسيرون بمقتضاها وبهذا الأسلوب استطاعت هذه المدرسة أن تصب كل تلك الأصول العربية واللاتينية في قالب قشتالي، وأن تخرج إنتاجا أدبيا وتاريخيا خالدا على مر العصور^(١).

وقد نشطت حركة الترجمة في العديد من مناطق الأندلس منها برشلونة وطرزونة بالإضافة إلى طليطلة التي كان لها شأن كبير في هذه الحركة، إذ أنشأ Raimune «ريموند» رئيس أساقفة طليطلة مركزا كبيرا للترجمة من العربية في النصف الأول من القرن الثاني عشر، وفيه تمت ترجمة كثير من المصادر العربية إلى اللاتينية.

وخلال هذه الفترة قام «روبرت الشستري» بترجمة القرآن الكريم لأول مرة إلى اللاتينية كما ترجم «الخوارزمي» في الرياضيات فضلا عن بعض المؤلفات العربية في الفلك والكيمياء وقام «جيرارد» بترجمة أكثر من سبعين مؤلفا تناولت مختلف ألوان المعرفة وبخاصة الرياضيات والطبيعة والكيمياء والطب.

ولم يقتصر الأمر على ذلك فقد برز في أوائل القرن الثالث عشر «الفرد» الإنجليزي وميخائيل سكوت الاسكتلندي، وهرمان الألماني وجميعهم عملوا في ترجمة المراجع العربية بإسبانيا. وهكذا كانت الأندلس بمثابة المعبر الأول الذي عبرت عليه الحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا.

ثانيا : صقلية وجنوب إيطاليا :

ساعد موقع صقلية الجغرافي بين ساحل إيطاليا الجنوبي والساحل التونسي إتي جعلها حلقة اتصال حضارى وسياسى بين أفريقيا وأوروبا، وإلى اعتبارها معبرا رئيسيا لنقل التراث الفكرى والحضارة الإسلامية إلى أوروبا ليس فقط خلال مدة حكم المسلمين لها والذي زاد عن قرنين ونصف من الزمان (٨٢٧-١٠٩١)، والذي حظيت خلاله خاصة في عصرى الأغالبة والفاطميين بحكم إسلامى مزدهر، انتشرت خلاله

(١) جمال الشيال ومختار العبادى : معايير انتقال الثقافة العربية الإسلامية إلى أوروبا ص ٢٢٦ -

الحضارة الإسلامية في مدنها المختلفة حيث انتشرت المساجد والقصور والحمامات والمستشفيات والأسواق والقلع، هذا إلى جانب الصناعات التي أدخلوها كصناعة الورق والحديد والسفن والفسيفساء ذات الرخام الملون . كما استخرجوا المعادن المختلفة كالكبريت والنفط والنوشار والرخام والحديد، وشاركوا في أمور الزراعة والتجارة ونشروا عاداتهم وثقافتهم ولغتهم بين الناس، وإنما استمرت هذه العلاقة خلال فترة حكم النورمانديين لها (١٠٩١-١١٩٤) ثم في فترة تبعيتها للإمبراطورية الألمانية، أيضا إذ بلغ التأثير الحضاري الإسلامي ذروته في عهد الإمبراطور فردريك الثالث (١٢٠٨-١٢٥٠) واستمر حتى خروج المسلمين النهائي من صقلية ثم من جنوب إيطاليا في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي وتجمعهم في شمال أفريقيا.

ومن يتتبع أخبار الحركة الفكرية في صقلية خلال هذه الفترة يمكنه القول أنها استمدت ثقافتها العربية الأولى، واقتبست تراثها الفكري من علماء بلاد المغرب والأندلس، كما أن هذه الحضارة ازدهرت ازدهارا كبيرا وعاش فيها مسيحيو الغرب مع المسلمين جنبا إلى جنب، فمن المعروف أن الفتح العربي لصقلية، والذي كان يضم بجانب الجند العلماء والفقهاء انطلق أساسا من تونس، وأن قائد الجيش الفاتح لصقلية كان الفقيه «أسد بن الفرات»، كما أن العديد من فقهاء القيروان قد نزلوا إلى صقلية بعد فتحها للقيام بواجبهم الديني والعلمي بالجزيرة.

وبالإضافة إلى انتقال العلماء المغاربة إلى صقلية فإن بعض أهالي صقلية انتقلوا بأنفسهم للتعلم على أيدي علماء المسلمين في المغرب مما يؤكد أن القيروان لعبت دوراً أساسياً في توجيه الفكر والثقافة في صقلية.

يضاف إلى ذلك أن بلاد الأندلس مثلت رافدا ثقافيا مهما لصقلية، فقد ساهمت في ازدهار الثقافة والعلوم العربية في هذه الجزيرة ونتيجة لذلك برز علماء صقليون في شتى العلوم والمعارف وقادوا الحركة الثقافية داخل بلادهم ثم نقلوها خارجها، حيث كان الغرب يفيد من حضارة الإسلام وثقافته، علما بأن الحضارة الإسلامية لم تنته بانتهاك حكم المسلمين للجزيرة وإنما وجدت من حكم النورمان خير مشجع لها فظلت الثقافة العربية قائمة حيث شمل بلاط الملك روجر الأول (١٠٩٢-١١٠١) العرب هناك بعنايته واهتم بالمحافظة عليهم وعمل على حمايتهم، وترك لهم قضاتهم وعين منهم

الكثيرين في الوظائف الحكومية، كما عين فرقة منهم في جيشه واحتضن الثقافة العربية وكتب مراسيمه بالعربية إلى جانب اللاتينية، وصك على إحدى وجهي النقود كتابات بالعربية، وعلى الوجه الآخر كتابات لاتينية ويونانية. وهكذا سارت صقلية في أيامه مملكة نصف إسلامية في دينها ونظامها الإداري والعسكري، وقد سار خلفاء روجر على طريقته فكان بلاط «روجر الثاني» (١١٠١-١١٥٤م) يجمع بين الثقافتين العربية واليونانية واللاتينية، كما كان الملك روجر يتكلم ويقرأ العربية ويلبس الملابس الشرقية، ويسير بلاطه ما كان متبعاً في العديد من القصور الإسلامية^(١)، وقد بلغ من تسامح هذا الملك وحبه للعدل والمساواة أنه كان يضرب نقوده باللغات العربية واللاتينية واليونانية . وقد امتلأ بلاطه في مدينة باليرمو Palermo بعدد من شعراء المسلمين وعلمائهم وكان يرجع إلى مستشاريه العرب في العديد من شئونه، كما استدعى إلى بلاطه العالم الجغرافي الكبير «محمد الإدريسي» (١١٦٤-١١٦٥) وكلفه بعمل خريطة للعالم فلبى الإدريسي طلبه ورسم له خريطة للعالم المعروف في عصره على دائرة فضية مسطحة Planisphere طولها ثلاثة أمتار وعرضها متر ونصف. كذلك ألف له كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» لوصف هذه الخريطة، ويعرف هذا الكتاب أيضاً بالكتاب الروجاري أو كتاب روجار لأنه هو الذي طلبه منه.

وقد اهتم العلماء والمستشرقون بهذا الكتاب العظيم وعملوا على نشر أجزائه وترجمتها إلى اللغات المختلفة. وحسبنا أن نشير إلى الطبعة العلمية الحديثة التي أخرجها المستشرقون الإيطاليون لهذا الكتاب في سبعة أجزاء.

وهكذا نرى أن الملك روجار الثاني كان على حد قول العالم الإيطالي «ميشيل أماري»، سلطاناً عربياً يحمل تاجاً كملوك الإفرنج، وأن تسامحه الديني أدى إلى امتزاج الثقافات العربية واليونانية واللاتينية، فصارت صقلية معبراً من المعابر الأساسية التي عن طريقها انتقل تراث الحضارة الإسلامية إلى أوروبا مما كان له أثره في قيام حركة النهضة المعروفة باسم حركة الرينيسانس Renaissance في أواخر العصور الوسطى.

(١) سعيد عاشور : المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوربية ص ٥٥.

ثم خلف روجار الثانى ابنه وليم الأول (١١٥٤-١١٦٦م) الذى سار على سياسة أبيه وجده فى حماية المسلمين وتشجيع الدراسات العربية الإسلامية، وكانت علامته مثل علامة أبيه «الحمد لله وشكراً لنعمته».

ثم خلفه ابنه وليم الثانى (١١٦٦-١١٨٩م) الذى تشبه بملوك المسلمين، وأتقن اللغة العربية قراءة وكتابة، واختار من رعاياه المسلمين وزراء وحراسه وجواريه تاركاً لهم حريتهم الدينية، وكانت علامته «الحمد لله حق حمده».

وبعد وفاة «وليم الثانى» تولى مقاليد الحكم فى صقلية «فرديريك الثانى» (١١٩٤-١٢٥٠م) ابن «هنرى السادس» امبراطور ألمانيا. وبهذا صار إمبراطوراً على ألمانيا وعلى مملكة الصقليتين التى تشمل بلاد نابولى وجزيرة صقلية. وبذلك انتقل الحكم فى صقلية من الأسرة المالكة النورماندية إلى أسرة الهوهنشتاوفن الألمانية. وقد تفرغ الإمبراطور فرديريك للدراسة والاستفادة من الثقافات السائدة فى عصره وهى العربية واليونانية واللاتينية. ولا شك أن التراث الحضارى الضخم الذى تركه العرب والنورمان فى صقلية وجنوب إيطاليا، كان له أثر قوى فى تكوين شخصية هذا الملك. وقد تجلّى ذلك بوضوح فى اهتمامه بالثقافة العربية، وترجمة مآثرها العلمية، وجنوحه إلى السلم فى حل مشاكله السياسية، وإقامة علاقات ودية مع ملوك مصر والشام من الأيوبيين.

وكان فرديريك الثانى شغوفاً بالعلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية، وكثيراً ما كانت تعترضه فيها مشكلات علمية ولا يجد من العلماء المحيطين به من يقدم له حلاً شافياً لها. فكان يرسلها إلى أصدقائه من ملوك المسلمين لعرضها على علماء بلادهم والإجابة عنها من ذلك مثلاً، المسائل الرياضية والفلكية التى أرسلها إلى الملك الكامل التى أجاب عنها العالم الرياضى المصرى علم الدين قيسر الأسفونى (نسبة إلى قرية أسفون بالصعيد) فبعث بها الملك الكامل إليه مع كتاب فى علم الفلك على سبيل الهدية. كذلك أرسل فرديريك مجموعة من الأسئلة الفلسفية إلى الفيلسوف الصوفى الأندلسى «ابن سبعين» وهى مسائل عن الكون والنفس والعلم الإلهى ٠٠ الخ. أجاب عنها «ابن سبعين» وقد عرفت باسم «المسائل الصقلية».

ولما ولى الملك الصالح نجم الدين أيوب عرش مصر، سار على سياسة الود والصداقة التي اتبعها والده الكامل نحو صقلية وتبادل مع الإمبراطور فردريك الثاني السفارات والهدايا، نذكر السفارة المصرية التي رأسها الشيخ «سراج الدين الأرموي» الذي أقام مدة في صقلية، وألف كتاباً في المنطق للإمبراطور فردريك.

ثم خلف الإمبراطور فردريك ولده مانفرد Manfred الذي لم يكن أقل عناية من أبيه بالثقافة العربية ولاسيما العلوم الرياضية والطبيعية. وقد عاصر هذا الإمبراطور دولة الممالك الأولى في مصر والشام على عهد السلطان بيبرس، وتوطدت بينهما أواصر الصداقة والمودة كما كان الحال في عصر الأيوبيين، فيروى المؤرخ «جمال الدين بن واصل» أن السلطان «بيبرس» اختاره على رأس سفارة إلى الإمبراطور مانفرد سنة ٦٥٩هـ (١٢٦١م) وأرسل معه هدية من جملتها عدد من الزراف، وجماعة من أسرى عين جالوت من التتار بخيولهم وعدتهم، فأعجب الإمبراطور بالهدية وأحسن إلى الرسل وأكرمهم. ويصف «ابن واصل» مقابلته للإمبراطور بقوله «فاقمت عنده مكرماً بمدينة من مدائن أبوليا (جنوب إيطاليا) يقال لها برلت Barletta، واجتمعت به فوجدته متميزاً، محباً للعلوم العقلية، يحفظ عشر مقالات من كتاب إقليدس في الهندسة. وبالقرب من البلد التي كنت نازلاً بها مدينة تسمى لوجارة Lucera أهلها كلهم مسلمون من أصل جزيرة صقلية، وتقام الجمعة فيها، ويعلن فيها بشعائر الإسلام، وهى على هذه الصفة من عهد أبيه وكان قد شرع في بناء دار علم بها ليشغل فيها بجميع أنواع العلوم النظرية. وأكثر أصحابه الذين يتولون أموره الخاصة مسلمون، ويعلن في معسكره بالأذان والصلاة»^(١).

وهكذا خلف العرب وراءهم في صقلية تراثاً ضخماً من الحضارة العربية، كما تركوا في الجزيرة في خزانات الكتب عدداً كبيراً من المؤلفات في مختلف ألوان العلوم والآداب.

وهكذا كانت صقلية هي المعبر الثاني الذي انتقلت عن طريقه الثقافة العربية الإسلامية إلى أوروبا، فقد أسهمت صقلية بنصيب مباشر في حركة الترجمة عن

(١) موسوعة العالم الإسلامي ص ٦٩-٧٠.

العربية حيث كانت فى «سالرنو» حركة نشطة لترجمة العلوم العربية والإغريقية إلى اللاتينية، فقد تم ترجمة الكثير من الكتب العربية خاصة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر، وفى عام ١١٥٠م ترجم أوجينوس البالرمى Palermo of Eugenius كتاب بطليموس السكندرى فى المراتب العربية، وفى سنة ١١٦٢ ترجمت عن العربية إلى اللاتينية كتابات أخرى فى الفلك والرياضيات.

ولا شك أن قسطنطين الأفريقى كان له دور كبير فى حركة الترجمة وكان من أهم أعماله ترجمة كتاب على بن عباس المجوسى المعروف بكامل الصناعة أو الكتاب الملكى وسمى باللاتينية Regius Liber وكانت ترجمة هذا الكتاب فتحة فى الطب اللاتينى خاصة وأنه كان أول شرح واضح للعلم الطبى عامة.

وهكذا أفادت أوروبا من الحركة العلمية التى قام بها العلماء فى صقلية، وكان أثرها فى النهضة الأوروبية من الأمور التى يصعب تجاهلها .

ثالثاً : بلاد الشام والحروب الصليبية

كانت بلاد الشام هى منطقة اللقاء الثالث بين الشرق والغرب فى العصر الوسيط إبان الحروب الصليبية، فعلى الرغم من أن هذه الحروب، التى بدأت فى عام ١٠٩٧م وسقط آخر معاقلها على يد السلطان المملوكى «الأشرف خليل قلاوون» فى عام ١٢٩١م كانت فى مظهرها ترتدى الرداء الدينى فإنه كانت هناك عوامل أخرى سياسية واجتماعية واقتصادية أقوى من العامل الدينى، فقد أسهمت ظروف تلك الحروب على المزيد من التعارف بين الجانبين، حيث نشأت صلات حضارية وتجارية بين الشرق الإسلامى والغرب الأوروبى استطاع خلالها بعض محاربى الحملات الصليبية أن ينقلوا بعض المعارف عن الزراعة والملاحة والصناعة وغيرها من شرق البحر المتوسط إلى أوروبا، بمعنى أن هذه الحروب، استخدمت كمعبر انتقلت عليه المدنية الإسلامية إلى أوروبا، كما برز منها جوانب مثمرة ومفيدة فى العلاقات بين العرب والأوروبيين فأخذ كل فريق من الآخر بعض سماته الحضارية.

وإذا تتبعنا بعض المؤشرات الحضارية التى تأثر بها الفرنج خلال الحروب الصليبية، نجد أنها كثيرة ومتنوعة :

فمن الناحية الاجتماعية، نجد أن الصليبيين، نظرا لقلّة عدد النساء الفرنجيات اللاتي صحبن المقاتلين، أقبلوا على الزواج من المواطنات المسيحيات من الموارنة والأرمن وبعض الأسيرات المسلمات . وقد نشأ عن هذه الزيجات جيل من المولدين عرفوا باسم بولاني Pulani، وقد غلب على هؤلاء في طبائعهم وعاداتهم الطابع الشرقي . كذلك أخذ الصليبيون يكيّفون حياتهم في الشرق حسب مقتضيات الحال والمناخ، فارتدوا الملابس الشرقية الفضفاضة واسعة الأكمام، وأطلقوا لحاهم، واكلوا الأطعمة الشرقية، وسكنوا القصور والبيوت ذات الطراز الشرقي حيث الأحواش أو الأفنية الداخلية التي تتوسطها النافورات والورود والأزهار، وتحيط بها الغرف والقاعات ذات المشربيات المحلاة بالزخارف المخزّمة المفرغة المنوعة، كذلك استخدموا في ولانهم وحفلاتهم الرقصات والمهرجين كما يفعل المسلمون.

أما من الناحية الاقتصادية، فنجد أن الصليبيين، استفادوا من المشرق الإسلامي استفادة كبيرة لدرجة أن بعض المؤرخين اعتبر الحركة الصليبية حروبا اقتصادية. ففي ميدان الزراعة نقل الصليبيون عن المسلمين إلى أوروبا نباتات وحاصلات وأشجار جديدة لم يعرفوها من قبل وسموها بأسمائها العربية مثل السكر والأرز والليمون والقطن والسمسم .. الخ .

وفي ميدان الصناعة، عرفوا كثيرا من المصنوعات الإسلامية ونقلوها إلى بلادهم مثل المنسوجات الحريرية الموشاة التي اشتهرت بها الشام وتعرف باسم البروكار Brocart والأقمشة القطنية التي كانت تصنع بدمشق وسميت باسمها «الدمشقيات Da-mask، وأقمشة الموصل Musilin ومنسوجات العتابية في بغداد Tapis . هذا إلى جانب صناعة الورق والصابون والخزف والزجاج والأصباغ والحلى والعقاقير .. الخ.

أما التجارة، فقد انتعشت بين الشرق والغرب بشكل لم يعرف من قبل. فكانت قوافل المسلمين ترد إلى الموانئ الصليبية على ساحل الشام تحمل سلع الشرق كاللؤلؤ والأحجار الكريمة والعاج والعمود والبهار (Spices) وكان على تجار المسلمين عند دخولهم تلك الموانئ أن يدفعوا ضريبة على بضائعهم وكانوا يعاملون في تلك الموانئ معاملة طيبة، ولهم فيها خانات أو فنادق ينزلون فيها ببضائعهم ودوابهم . ومن الطريف

فى هذا الصدد، أن حركة التجارة بين الجانبين ظلت مستمرة ولم تتوقف حتى فى أوقات الحروب بينهم، وقد نص على ذلك الرحالة المعاصر ابن جبير عند قوله «واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع، وأهل الحرب مشغولون فى حربهم، أما الرعايا والتجار فالأمن لا يفارقهم فى جميع الأحوال سلماً أو حرباً».

وكان من نتائج ازدياد النشاط التجارى بين الشرق والغرب، أن ظهرت المدن التجارية فى أنحاء أوروبا، وهى ظاهرة جديدة أدت إلى اجتذاب الفلاحين إلى المدن وانحياز النظام الإقطاعى. كذلك ظهر نظام المصارف فى تلك المدن التجارية، وكثيراً ما عاونت هذه البنوك الطبقات الحاكمة بالقروض المالية وتحالفت معها ضد رجال الإقطاع. وقد نتج عن هذه المعاملات المالية إصدار صرف يعرف بالـ «شيك»، وكذلك السفاتيح جمع سفتاجة بمعنى الحوالة، وهى أنظمة مشرقية الأصل.

وهكذا شهدت الفترة بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر ازدهاراً فى العلاقات التجارية بين العرب وأوروبا بشكل لم يكن معروفاً من قبل.

ومن الناحية المعمارية العسكرية، نلاحظ أن العمارة الإسلامية أضافت إلى التراث الفنى العالمى نظاماً لم تكن معروفة من قبل مما جعل لها فى العصور الإسلامية طابعاً مميزاً. ومن أمثلة ذلك أشكال العقود، وأنظمة المساجد والمدارس والقصور والحمامات والأضرحة. كذلك ابتكر المسلمون المداخل ذات المرافق أو المنعطفات المتعددة فى المدن والحصون الإسلامية. والغرض من ذلك التحكم فى العدو المهاجم من باب الحصن عبر هذه الممرات الضيقة الطويلة الملتوية. ومن أمثلة هذه المداخل عند المسلمين مدينة بغداد التى كانت أبواب أسوارها الخارجية لا تقع فى سمت واحد مع أبواب أسوارها الداخلية، بل مزورة عنها ويفصل بينهما دهاليز ومنعطفات ملتوية لأغراض دفاعية، ولذا أطلق على بغداد اسم «الزوراء».

وقد طبق هذا الأسلوب الحربى بشكل أفضل فى قلعة الجبل (المقطم) بالقاهرة فى عهد صلاح الدين الأيوبي، فى القرن السادس الهجرى، وفى قلعة حلب فى القرن السابع الهجرى، وفى قلاع المرابطين والموحدين بالمغرب.

ولقد انعكس هذا الأسلوب المعماري العسكري على الحصون والقلاع التي شيدها الصليبيون في الشام أو في أوروبا بعد ذلك مثال ذلك حصن الاكراد -Crac de che-valliero في شمال شرق طرابلس الذي أعاد فرسان الاسبتارية تشييد قلعته على مثل هذا النظام الرائع الذي ما زالت أثاره باقية إلى اليوم. كذلك ابتكر المسلمون نظام «السقاطة» التي انتقلت إلى الغرب باسم ماتشيكولي Machicoli وهي عبارة عن شرفة صغيرة من الحجارة أو الخشب تبرز من الحائط ولها فتحات من أسفل، وتقام فوق أسوار الحصن، فيستطيع المدافعون من خلال هذه الفتحات إلقاء المقذوفات أو السائل الحار أو العذرة على المهاجمين، وقد استعار الصليبيون نظام هذه السقاطات وطبقوه في قلاعهم في شمال الشام وفي أوروبا. ومن أمثلة ذلك قلعة جابار التي شيدها ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، على نهر السين عقب عودته من الأراضي المقدسة. هذا إلى جانب نقلهم عن العرب فكرة استخدام الحمام الزاجل في إرسال الرسائل العسكرية إلى القوات المحاربة.

أما من ناحية التأثير الثقافي، فإنه يبدأ منذ أن أخذ كل فريق يتعرف على الفريق الآخر، ويحاول أن يكتب عنه حاضره وماضيه. ولقد أنجب عصر الحروب الصليبية نخبة من المؤرخين المعاصرين شرقيين وغربيين، كل يمثل وجهة نظره في تلك الحروب، فتوفرت من هذه الحقبة الصليبية مادة خصبة لم يتوفر مثلها من قبل.

وقد عكف المؤرخون الأوروبيون في العصر الحديث على جمع هذه المادة الوفيرة في موسوعة علمية باسم «مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية (1841 - 1966) (PARIS) Recueil Des Historiens des Croisades (PARIS 1841 - 1906) وهي تضم ما كتبه المؤرخون المشاركة في خمسة مجلدات تحت عنوان : Historiens Orientaux وما كتبه المؤرخون الغربيون في خمسة مجلدات أيضا تحت عنوان : -Historiens Occidentaux ومن بين كتاب المسلمين الذين كتبوا عن العلاقات بين المسلمين والصليبيين نذكر الرحالة الأندلسي محمد بن جبير الذي زار الشام في أواخر القرن السادس الهجري (١٢م) ووصف التعارف المشترك بين المسلمين والمسيحيين في الإمارات الصليبية.

وهناك كان المؤرخ الذي عاصر ابن جبير وأمدنا بمعلومات هامة عن علاقات المسلمين بالصليبيين بالشام، وهو أسامة بن منقذ (ت٥٨٢هـ/١١٨٨م) أحد فرسان بني

منقذ والذي كانت له مع الصليبيين مشاكل وحروب وصداقات ونوادير أوردها فى «كتاب الاعتبار» وتتضمن صوراً مقارنة بين عادات المسلمين والفرنجة، شاهدها أو عاينها بنفسه. لقد كان أسامة موضع إعطاء معاصريه وعلى رأسهم صلاح الدين الأيوبي الذي كان معجباً بشجاعته وشعره.

أما المؤرخ الحموى جمال الدين بن واصل (ت ٦٩١هـ/١٢٩٧م) فقد أورد فى كتابه «مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب» بعض المعلومات الهامة عن لويس التاسع ملك فرنسا أثناء حملته على مصر، وعن الإمبراطور منفرد بن فردريك الثانى حينما قابله كسفير للسلطان الظاهر بيبرس.

وهناك مؤرخ حموى آخر اسمه محمد بن على بن نظيف قدم لنا فى كتابه «التاريخ المنصورى» صوراً لبعض الخطابات المرسلة من الإمبراطور فردريك الثانى إلى أحد الأمراء يروى له فيها بعض أخبار دولته وما جرى فيها من أحداث عقب رجوعه من حملته فى فلسطين (٦٢٦هـ/١٢٢٩م).

أما المؤرخون الأوروبيون الذين وصفوا حروبهم فى المشرق وكتبوا عن المسلمين وبلادهم فهم عديدون أيضاً، نذكر منهم وليم الصورى William of Tyre (١١٣٠-١١٨٤م) الذى اتصل بالملك عمورى الأول وصار مربياً لأولاده، وظل يتدرج فى المناصب حتى صار كبيراً لأساقفة صور. ومن أهم مؤلفاته كتاب فى تاريخ الحروب الصليبية منذ قيامها سنة ١٠٩٦م حتى آخر أيامه ١١٨٤م بعنوان «تاريخ الأعمال التى تمت فى بلاد ما وراء البحر» Historia reum in partibus transmarinis gestarum، والكتاب يتضمن معلومات مفيدة عن مصر وأحوالها الداخلية فى أواخر العصر الفاطمى، وكذلك عن تجارتها فى البحر الأحمر مع بلاد الهند.

ولا يفوتنا أخيراً أن نشير إلى المؤرخ الفرنسى دى جوانفيل De Joinville (القرن ١٣هـ/١٣م) الذى صاحب الملك لويس التاسع فى حملته على مصر وأسر معه فيها، وكتب عنه كتاباً بعنوان «القديس لويس» وأورد فيه معلومات هامة عن مصر والمماليك.

وهكذا نرى أن الحروب الصليبية، وإن كانت قد سفكت فيها دماء غزيرة إلا أنها كانت مهمة لهذا اللقاء الحضارى بين الشرق والغرب، إذ انمحت الصورة القديمة التى

كانت فى مخيلة الصليبيين عن المسلمين، فلم يعودوا يرونهم جنوداً جبناً، أو قساة غلاظ القلوب، بل شهدوا من حضارتهم الراقية وشجاعتهم فى القتال وورعهم فى الصلاة وسماحتهم فى معاملة أهل الأديان الأخرى، ما أطلق السنتهم بالإعجاب والتقدير، وقد صدق المؤرخ الإنجليزى هرنشو Hearnshaw حينما عبر عن هذا الإعجاب بقوله : خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين، فإذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة عندما رأوا المسلمين على حضارة دنيوية ترجح حضارتهم رجحاناً لا تصح معه المقارنة بينهما».

وعلى الجانب الآخر من العالم الإسلامى، فقد انعكست العلاقات الثقافية والتجارية بين المسلمين وأوروبا، على التواصل الحضارى بين الحضارتين الإسلامية والغربية، إذ كانت القسطنطينية نقطة الالتقاء والمعبر لذاك التواصل والتفاعل، فحين كان المسلمون يواصلون ضغطهم على القسطنطينية باعتبارها مفتاح الطريق إلى أوروبا الشرقية، هجر قسم من علماء بيزنطة، المدينة مزودين بكتبهم الكلاسيكية وبحصيلتهم الثقافية نتيجة الاتصالات الثقافية مع العالم الإسلامى، وخاصة مع الأندلس وبلاد الشام وانساحوا فى أوروبا، وعلى الأخص منطقة البحر المتوسط، فأسهموا فى التعجيل بالنهضة الأوروبية^(١).

وهكذا كانت الحروب الصليبية ميداناً للكسب الحضارى ففيه بدأت محاولات الغرب المنظمة للاقتباس من حضارة العرب وكانت كفة العرب فى هذه العلاقات هى الراجحة فقد كانوا يملكون من مقومات الحضارة المادية والعقلية ما يستطيعون أن يقدموا منه لأوروبا، بينما لم تكن أوروبا حتى القرن السادس عشر تملك من المقومات التى تمكنها من أن تضيفه لتراث العرب. لهذا أخذ الأوروبيون من العرب أكثر مما أعطوا، فاقتنسوا الكثير من علوم العرب وفلسفتهم وعمارتهن وفنونهم العسكرية وصناعاتهم وتجارتهم وحياتهم الاجتماعية وتأثرت لغاتهم وأدابهم ومجتمعاتهم إلى حد كبير باللغة العربية والآداب العربية والحياة العربية، يضاف إلى ذلك أن العرب كانوا يملكون مفاتيح التجارة التى يحتاجها الأوروبيون مثل التوابل والعقاقير وغيرها من منتجات الشرق المعروفة.

(١) موسوعة العالم الإسلامى من ٧٣-٧٥ .

وقد حرص العرب على استمرار علاقتهم التجارية مع أوروبا نظرا لأنهم كانوا يحصلون على أرباح كثيرة منها هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا لا يجدون حرجا من الاتصال بهذه الشعوب الأوروبية فقد ملأهم النصر في الحروب الصليبية المتأخرة ثقة في قوتهم، واعتدادا برجحان تفوقهم، فقد استطاعوا إخراج الصليبيين من الشرق، وهامهم يرون سلاطين الممالك ينتزعون قبرص، والأتراك العثمانيون أصبحوا قوة إسلامية ذات بأس، والعرب والمسلمون لم يثقوا في قوتهم وكفايتهم لمواجهة أوروبا فحسب وإنما وثقوا في تفوق حضارتهم بعد أن شهدوا نوع الحياة التي يحياها أبناء الغرب في ذلك الوقت في العصور الوسطى، فقد كان الأوروبيون أقل حظا من العرب في العلم والثقافة والاقتصاد والسياسة وظلت الأمور على ذلك سنين حتى مال الميزان تجاه أوروبا ورجحت كفتهم في ميزان الحضارة والقوة^(١).

وعلى الرغم من كل ذلك وبالرغم من أن الحروب الصليبية كانت لها آثار سياسية وعسكرية واجتماعية، كما أنها كانت إحدى مواطن الاتصال بين الحضارتين الإسلامية والغربية فإنها لم تكن ذات تأثير كبير مثل الأندلس وصقلية خاصة في النواحي الثقافية والعملية. ويرجع ذلك إلى أن معظم الأوروبيين الذين شاركوا في الحملات الصليبية كانوا قليلي الحظ من الثقافة، وليس لديهم قدر كاف من الحضارة تسمح لهم باستيعاب العلوم العربية ولم يظهر بينهم عالم بالمعنى الحقيقي سوى «وليم الصوري» الذي يعد من أكبر مؤرخي القرون الوسطى.

يضاف إلى ذلك أن الصليبيين لم ينعموا خلال تواجدهم بالشرق بفترة من الهدوء اللازم حتى يتمكنوا من البحث والدراسة والتعمق في العلم.

رابعا : حركة الترجمة :

وبالإضافة إلى هذه المعابر الثلاثة، كانت توجد خطة منظمة لترجمة معارف المسلمين، ونقلها إلى اللاتينية في العصور الوسطى، فانصرف الأوروبيون لدراسة علوم المسلمين بحماس بالغ مما ترك أثره الواضح في الفكر الأوروبي. فبعد أن ترجم العرب

(١) أحمد عزت عبد الكريم : دراسات في تاريخ العرب الحديث ص ١٧-١٨ .

تراث العالم القديم في العلم والفن والأدب والرياضة والفلسفة، وكل ما وقع تحت أيديهم من معلومات خلفتها الحضارات السابقة ترجموا كتبها في الكيمياء عن مصر القديمة، وترجموا عن اليونان كتب الطب والرياضيات والفلك والجغرافيا والفلسفة والأدب والموسيقى، وترجموا عن الفرس كتب الأدب والشعر والتاريخ والأخبار وأحكام النجوم، وترجموا عن الهنود كتب الطب والفلك والرياضيات والتاريخ والأدب والموسيقى، وترجموا عن الأنباط كتاب الفلاحة النبطية وبعض كتب السحر والأصنام وغير ذلك. وبذلك اكتمل لديهم تراث الفكر الإنساني في مجمله، والحق أن شعوباً عديدة في منطقة شرق البحر المتوسط كان لها اليد الطولى في إرساء حضارة الإنسان فقد تناوبت العمل والابتكار على مسرح التاريخ. فعندما أصبحت الحضارتان المصرية والبابلية في حاجة إلى دفعة جديدة وجدتها في الحضارة اليونانية، وعندما ذبلت الحضارة اليونانية وكادت تطمس حضارتهم وجدت الحضارة في العرب تلك القوة الدافعة التي حملت المشعل الذي كاد ينطفئ، فأضاءوه من جديد ثم نقلوه بدورهم إلى أوروبا^(١). فمن الثابت أن النهضة الكبيرة التي شهدتها أوروبا منذ القرن الثاني عشر والتي كانت أهم بواكير عصر النهضة ارتبطت إلى حد كبير بالتراثين اليوناني والإسلامي عن طريق حركة ترجمة واسعة عن العربية واليونانية.

لقد عرف الغرب العلوم العربية عن طريق الترجمات في العصور الوسطى، فنلاحظ في القرن الحادي عشر أن «قسطنطين القرطاجني» قضى ثلاثين عاماً متنقلاً في ربوع الشرق وشمال أفريقيا بهدف دراسة علوم الطب العربي، ثم واصل بعد ذلك في سالرنو ليدرس ما قام بجمعه، وأخيراً استقر بأحد الأديرة ليترجم المؤلفات العربية إلى اللاتينية.

كذلك درس «أبلارد» الإنجليزي أثناء رحلاته إلى إسبانيا والشرق المؤلفات الرياضية والفلكية لدى العرب وترجمها إلى اللاتينية.

وأسس أسقف طليطلة مدرسة للترجمة لنقل كتب فلاسفة العرب القدماء إلى اللاتينية وهكذا تلقت أوروبا علوم المسلمين ودرستها واستفادت مما فيها، وأضافت

(١) جلال مظهر : حضارة الإسلام وأثرها في الترقى العالمي ص ٤٨٦-٤٨٧ .

إليها كذلك وعلى أى حال فإن النهضة الأوربية لم تكن من صنع حضارة واحدة، خاصة وأن الأفكار العظيمة التى تحدث تحركات كبرى بين البشر تكون دائما نتيجة لجهود جيل أو أجيال من الرجال، والجيل كله بل الأجيال المتوالية كلها هى التى تصنع التغيير العظيم الحاسم، فحركة التجديد الغربى أو التنوير لم تكن عمل بلد واحد أو منطقة بعينها بل هى ثمرة عمل جماعى مشترك أنجز سلسلة ضخمة من المنجزات تعاون فيها أبناء أجيال عديدة كان منهم العرب الذين بذلوا جهودهم بعد أن استفادوا من غيرهم من الحضارات الأخرى لدرجة أنهم أصبحوا بمثابة المجموعة الحضارية الأم التى عم إشعاعها جميع أرجاء المعمورة، وتهيأت أسباب التقدم الحضارى لبقية أجزاء العالم الأخرى.

* * * * *